بحث

"الأسلوبية"

للدكتور أيمن أحمد رؤوف القادري

مستلّ من كتاب

دليل مناهج البحث العلمي

الجامعة اللبنانية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

بيروت

ط١، ٢٠٢٠

الأسلوبيّة

أوّلًا- التعريف وأهمّ الأعلام والمؤلّفات

يرى ميشال ريفاتير (Michel Riffaterre) (١٩٢٤-٢٠٠٦) أنّ الأسلوبيّة علمٌ يدرس أسلوب الآثار الأدبيّة دراسةً موضوعيّة، انطلاقًا من اعتبار الأثر الأدبيّ بنية ألسنيّة تتحاور مع السياق المضمونيّ تحاورًا خاصًّا (المسدّي، ١٩٧٣، ص٢٧٧).

وهي حوار دائم بين القارئ والكاتب، من خلال نصّ معيّن، على مستويات: النصّ والجملة والمفردة والصوت (شريم، ١٩٨٧، ص٧)، وهي بذلك «وريث شرعيّ للبلاغة» (فضل، ١٩٩٨، ص٥)، التي اعتمد علمُ اللغة الحديث مقرّراتِها في إقامة علم الأسلوب (أبو العدوس، ١٩٩٩، ص١٧٧).

بدأت الأسلوبيّة فعليًّا حين نشر شارل بالي (Charles Bally) (١٨٦٥-١٩٤٧)، كتابه الأوّل **بحث في علم الأسلوب الفرنسيّ** عام ١٩٠٢ (فضل، ص١٨). وينبّه بسّام بركة إلى أنّ دراسة الأسلوب كانت تابعة عمليًّا النقدَ الأدبيّ، ثمّ استقلّت مع تمكُّن اللسانيّات (مولينيه، ١٩٩٩، ص٨).

ثمّة أربعة اتّجاهات أساسيّة في الأسلوبيّة:

١- الاتّجاه التعبيريّ الفرنسيّ

تبحث الدراسة الأسلوبيّة عند شارل بالي في لغة جميع الناس، ولا تدخل فيها دراسة اللغة الأدبيّة (فضل، ص٢٢-٢٥). وهي تدرس وقائع التعبير اللغويّ بمضامينها الوجدانيّة (العاطفيّة)، وتهدف إلى دراسة القيم التعبيريّة (اللغويّة) الكامنة في الكلام (الكوّاز، ١٤٢٦، ص٩٨).

٢- الاتّجاه المثاليّ الألمانيّ

نشر بنديتو كروتشيه (Benedetto Croce) (١٨٦٦- ١٩٥٢) كتاب **علم الجمال باعتباره عِلْمًا للتعبير واللغة العامّة.** وكان له تأثيره في علماء اللغة الإيطاليّين، ومنهم كارل فوسلير (Karl Vossler) (١٨٧٢- ١٩٤٩) زعيم المدرسة المثاليّة الألمانيّة، الذي يرى تطبيق قوانا الحدْسيّة على البحث التاريخيّ الموضوعيّ بشكل صحيح، مع اعتباره أنّ علم اللغة من فروع الموادّ التاريخيّة، وأنّ اللغة معادلة للتعبير الروحيّ (فضل، ص٤٤-٤٦). وكان خلفه ليو سبتزر (Leo Spitzer) (١٨٨٧-١٩٦٠) قد عالج مشكلات أسلوبيّة تفصيليّة كالمجموعات الدلاليّة، وتاريخ الكلمات، ودراسة الأسلوب الفرديّ... (ص٥٥- ٧١).

٣- الاتّجاه النقديّ الإيطاليّ والإسبانيّ

نشر الباحث الإيطالي جياكومو ديفوتو (Giacomo Difoto) (١٨٩٧-١٩٧٤) دراسة لعلم الأسلوب الإيطاليّ عام ١٩٣٠، اقترح فيه توزيعًا مختلفًا تمامًا للنقد الأسلوبيّ، يُعنى بالاختيارات الفرديّة المتحقّقة في مادّة اللغة. ثمّ دعا الباحث الإسباني أمادو ألونسو (Amado Alonso) (١٨٩٦-١٩٥٢) إلى إقامة منهج نقديّ أسلوبيّ، يعيد بناء عناصر العمل الأدبيّ من الداخل لا من الخارج (ص٧٤- ٧٥). وقد حلّل ألونسو عيون الشعر الإسبانيّ في مختلف عصوره (ص٨٢- ٨٩).

٤- الأسلوبيّة البنيويّة

تبحث الأسلوبيّة البنيويّة في بنية النصّ الأدبيّ: جهازه اللغويّ، ونمطيّته، ومفرداته، وتراكيبه، ودلالاته، وسُمّيت أيضًا بـ «الأسلوبيّة الوظيفيّة» (الحربي، ٢٠٠٣، ص١٦)، وهي نقطة الانطلاق في تطبيق مناهج التحليل اللسانيّ على الأدب (مولينيه، ص٨٤). وهي أكثر المذاهب الأسلوبيّة شيوعًا الآن، وعلى نحو خاصّ ما يُترجَم إلى العربيّة، وتُعَدّ امتدادًا متطوّرًا لأسلوبيّة شارل بالي في الوصفيّة (التعبيريّة) وامتدادًا لآراء فرديناند دو سوسير (Ferdinand de Saussure) (١٨٥٧-١٩١٣) التي قامت على التفرقة بين اللغة والكلام (الكوّاز، ص٩٩).

وللأسلوبيّة البنيويّة اتّجاهات أيضًا متعدّدة:

- الإرهاصات الأسلوبيّة البنيويّة في الشكلانيّة الروسيّة ومدرسة براغ، ولا سيّما

كتابات رومان جاكوبسون (Roman Jakobson) (١٨٩٦-١٩٨٢) (مولينيه، ص٨٤، ٨٩، ٩٠). وهي النواة الحقيقيّة لما عُرف بالأسلوبيّة الصوتيّة (خليل، ٢٠٠٣، ص١٥٣-١٥٤).

- الأسلوبيّة البنيويّة عند رولان بارت (Roland Barthes) (١٩١٥-١٩٨٠): الأسلوب عنده لغة تتميّز بالاكتفاء الذاتيّ، وتغرس جذورها في أسطوريّة المؤلّف الذاتيّة (الحربي، ص٢٠).
- الأسلوبيّة البنيويّة عند ميشال ريفاتير: الأسلوب الأدبيّ هو كلّ شيء ثابت فرديّ ذي مقصديّة فرديّة، وذلك خاصّ بمؤلّف معيّن أو عمل أدبيّ معيّن (ص٢١). وقد أفرد كتابًا خاصًّا لهذا الغرض سمّاه **محاولات في الأسلوبيّة البنيويّة** صدر عام ١٩٧٦. ولذلك ليس ثمّة أسلوب أدبيّ عنده إلّا في النصّ (البكري، ٢٠٠٣).
- الأسلوبيّة البنيويّة عند النحويّين التوليديّين والتحويليّين: يتحدّد هنا الأسلوب انطلاقًا من كونه اختيارًا يقوم به المؤلّف لبعث إمكانات الصياغة اللغويّة، وهو اختيار للتحوّلات الممكنة (الحربي، ص٢١).

ثانيًا- مصطلحات

تشعّبت الاتّجاهات الأسلوبيّة، فكان لكلّ اتّجاه مصطلحاته الخاصّة، ولكنّ المناخ الأسلوبيّ ارتضى نتاج ريفاتير واستقرّ عليه، ولذلك سنقتصر على مصطلحاته الأساسيّة التي نجدها في مجموعة دراسات (فضل، ص١٨٧-٢٢٨؛ مكرسي، ٢٠١٠، ص٧٠-٩٤؛ البكري، ٢٠٠٣).

- الوَحدة الأسلوبيّة (Stylistic Unity): ثنائيّة قطبَين لا يفترقان، الأوّل منهما يبدع الاحتمال، والثاني يلغيه. والأثر الأسلوبيّ (Stylistic Effect) ينتج عن التضاد البنيويّ (Structural Contrast) الحاصل بينهما.
- الطريقة الأسلوبيّة (The Stylistic Method): المظهر المنتظم في نصّ (مثل كثرة النعوت)، ومجموع الطرائق الأسلوبيّة، مع العلاقات التركيبيّة المحتملة لهذه الطرائق، يكوّن أسلوب النصّ.
- السياق الأصغر (Micro Context): العلاقة بين العلامات اللغويّة الموسومة والعلامات غير الموسومة. في قولنا «الغموض الواضح»، السياق هو «الغموض»، و«الوضوح»

يُنشئ وقعًا مفاجئًا، فالغموض كلمة غير موسومة، والوضوح علامة موسومة.

- السياق الأكبر (Macro Context): هو النصّ الكامل.
- التواصل (Communicate): يحمل طابع شخصيّة المتكلّم في سعيه إلى لفت نظر المخاطَب، فالمتكلّم يشفّر (Encode) تجربته الذاتيّة، والمخاطب يفكّ الشيفرة (Decode).
- عنصر المفاجأة (The Element of Surprise): عنصر غير متوقّع في الإجراءات الأسلوبيّة يُحدث خلخلة وهزّة في إدراك القارئ ووعيه.
- الانحراف أو الانزياح (Deviation): حيلة مقصودة لجذب انتباه القارئ.
- القارئ العمدة (Architecteur): القارئ الماهر الخبير الذي يستطيع تعيين الانحراف ضمن مجموع القرّاء.
- التشبّع (Saturation): أن تتكرّر السمة الأسلوبيّة (كالسجع) باطّراد وتُشبِعَ النصّ، حتّى لا يصحّ إبرازها علامةً مميّزة.
- الانصباب (Convergence): تجمُّع العناصر الناجمة عن الإجراءات الأسلوبيّة وتراكمها.

ثالثًا- إجراءات

١- الإجراءات وَفق الاتّجاه التعبيريّ الفرنسيّ

يعمل هذا الاتّجاه بشكل تطبيقيّ ميدانيّ على التفرقة بين الخواصّ الطبيعيّة العامّة، والخواصّ المستثارة التي تمليها فئة اجتماعيّة خاصّة على مفردات اللغة وصيغها. ويفرّق بين عدّة لهجات للشخص الواحد، طبقًا للظروف: في المنزل، في العمل، في المناسبات الاجتماعيّة... ويدرس تباين اللغة وَفق المهن والعصر والمكان والعمر والجنس (فضل، ص٢٢-٢٤).

٢- الإجراءات وَفق الاتّجاه المثاليّ الألمانيّ

على الباحث الأسلوبي أن يجتهد في البحث المضني عن مفتاح الدراسة الأسلوبيّة في نصّ، والمخرج من المأزق يكون بإعادة الاتّصال بالنصّ حتّى تبرز كلمة معيّنة أو بيت، يشعرك بالمفتاح. وهذا المفتاح يختلف من نصّ إلى آخر. وأبرز ما يميّز هذه المدرسة أنّها انطباعيّة (ص٥٥-٧١).

والقيمة الأسلوبيّة للعنصر اللغويّ الواحد، كما ذكر بسّام بركة، تختلف باختلاف النصوص والعصور والأنواع الأدبيّة (مولينيه، ص٢٢).

٣- الإجراءات وَفق الاتّجاه النقديّ الإيطاليّ والإسبانيّ

هذا الاتّجاه نقديّ أسلوبيّ، يعيد بناء عناصر العمل الأدبيّ من الداخل لا من الخارج، دون إملاءات مسبّقة أو إسقاطات من خارج النصّ. وكلّ خاصيّة لغويّة في الأسلوب عنده تطابق خاصيّة نفسيّة (فضل، ص٧٤-٧٥). ولا بدّ من وضع اليد على ملامح الشكلَين الخارجيّ والداخليّ، والعلاقات بين الدالّ والمدلول، بالاستناد إلى الذوق (ص٨٢-٨٩).

٤- الإجراءات وَفق الأسلوبيّة البنيويّة

انسجامًا مع اختيار سابق، لا بدّ أن نحصر دراسة الأسلوبيّة البنيويّة في اجتهادات ريفاتير، وَفق ما أرشدتْنا إليه مجموعة دراسات (فضل، ص١٨٧-٢٢٨؛ مكرسي، ص٧٠-٩٤؛ البكري، ٢٠٠٣).

ينبغي أن نفرّق بين الطريقة الأسلوبيّة (The Stylistic Method) والأسلوب، فالطرائق مظاهر جزئيّة منتظمة، وحين تتجمّع، وتُضاف إليها علاقاتها التركيبيّة المحتملة، نصل إلى الأسلوب.

ولا بدّ من الإعراض عن شرح الكلمة معزولة، لأنّ ذلك يؤدّي إلى إنكار الحدث الأسلوبيّ. وعلينا تقويض مفهوم الاستعمال بـ «السياق الأسلوبيّ».

والانحراف هو السياق الخارجيّ، ووَحدته الأساسيّة هي السياق الأصغر، وهما يكوّنان معًا مسلكًا أسلوبيًّا، كأنْ يُقال: شمس سوداء أو ضوء خجول، فالاسم الأوّل من العبارتَين سياق أصغر، والوصف مخالفة أو انحراف، وهكذا تستقرّ المعادلة التالية: سياق أصغر + مخالفة = مسلك أسلوبيّ. ومن الجائز أن تمتدّ المخالفة حتّى تصبح هي نفسها سياقًا.

وكذلك يمكن أن يدخل السياق الأصغر في سياق أكبر، ليشكّل سلسلة لغويّة ممتدّة يكون السياق جزءًا منها، ولا تنحصر داخل حدود الجملة النحويّة أو عدد معيّن من الجمل، وإنّما تتحدّد نهايتها بشعور القارئ، كما تتحدّد بدايتها بقدرته على التذكُّر.

والنصّ لا يمكن أن يوجد بذاته، وإنّما هناك علاقة يجب أن تنشأ بينه وبين والمخاطب، فهو يفكّ الشيفرات التي وضعها المتكلّم، وعلى هذه العلاقة يقوم الأسلوب.

ويكون كلّ إجراء أسلوبيّ (سمة أسلوبيّة/ طريقة أسلوبيّة) جزءًا من بنية أكبر تمثّل القوّة التعبيريّة التي تصبّ فيها جميع الإجراءات المستخدمة.

رابعًا- ميادين

في خضمّ الاتّجاهات الأسلوبيّة الكثيرة، نجد بعضَ ما يليق بالدراسة اللغويّة البحثيّة، ومن ذلك الأسلوبيّة التعبيريّة، لأنّها مناسِبةٌ لدراسة خصائص أيّ لغة في استخداماتها التواصليّة، فيمكن أن تكون مظلّة لأيّ دراسة تتناول مفردات جيل الحرب، أو تراكيب جيل الشابكة (الإنترنت) والمنصّات الاجتماعيّة. ويمكن أن تحتضن دراسات اللهجات كذلك، ولا سيّما في إطارها الصوتيّ.

وتبدو الأسلوبيّة الحدْسيّة أو المثاليّة مناسِبة للتعمّق في فهم معايير الذوق، وأصول العبقريّة، في الإنتاج الأدبيّ، ولا سيّما أنّها لا تقف موقفًا صارمًا في وضع النصّ تحت مِجهر النظريّات المعلّبة، وتتيح للباحث أن يظهر رأيه وانطباعه في أساليب النصوص الأدبيّة مستندًا إلى حسّه الفنّيّ وروح ثقافته.

أمّا الأسلوبيّة النقديّة فتمكّننا أن نطبّق منهجًا ثابت الأركان على الأعمال الأدبيّة المعاصرة والقديمة معًا، من دون تمييز. وبذلك نستطيع إقامة مقارنات أسلوبيّة بين قصائد من التراث، وقصائد معاصرة، وَفق إجراءات موحّدة. وترى الأسلوبيّة النقديّة أيضًا أنّ كلّ خاصيّة لغويّة في الأسلوب تطابق خاصيّة نفسيّة، وهي، من جانب آخر، تطرح الدلالة المنطقيّة جانبًا، وتركّز على تحليل القيم اللغويّة. وهذا يعني أنّنا لسنا أمام أسلوبيّة رياضيّة أو منطقيّة أو ذات منحى علميّ صِرْف يتّسم بالجفاف.

وأفضل ما ينبغي أن نركّز عليه الأسلوبيّة البنيويّة، لأنّها امتداد طبيعيّ للبلاغة العربيّة في أوج تألّقها. يقول في ذلك رولان بارت: «إنّ العالم مليء بالبلاغة القديمة بشكل لا يُصدَّق»، وربّما تنطبق هذه المقولة على واقعنا الأسلوبيّ العربيّ، بيد أنّنا نفتقر إلى محاولةٍ جادّة وجديدة تؤسّس أسلوبيّةً عربيّة تستند إلى الموروث البلاغيّ العربيّ (ناظم، ٢٠٠٢، ص١٣، ١٦). وهذا يعزّز توجّه البحث العربيّ إلى التنقيب عن أصول أسلوبيّة تراثيّة في نقدنا البلاغيّ، وتظهيرها وبلورتها في أطر منهجيّة واضحة.

خامسًا- مصادر ومراجع

- بليت، هنريش (١٩٩٩). **البلاغة والأسلوبيّة: نحو نموذج سيميائيّ لتحليل النصّ** (ط ٢)، تر. محمّد العمري. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- جيرو، بيير (١٩٩٤). **الأسلوبيّة** (ط٢)، تر. منذر عيّاشي. حلب: مركز الإنماء الحضاريّ.
- ريفاتير، ميشال (١٩٩٣). **معايير تحليل الأسلوب** (ط١)، تر. حميد لَحمِداني. الدار البيضاء: منشورات دراسات سال.
- عزّام، محمّد (١٩٨٩). **الأسلوبيّة منهجًا نقديًّا.** دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
- عيّاشي، منذر (٢٠٠٢). **الأسلوبيّة وتحليل الخطاب** (ط١). حلب: مركز الإنماء الحضاريّ.
- المسدّي، عبد السلام (١٩٨٨). **الأسلوب والأسلوبيّة** (ط٣). تونس: الدار العربيّة للكتاب.

سادسًا- قراءات تطبيقيّة

- بديدة، رشيد (٢٠١١). **البنيات الأسلوبيّة في مرثيّة بلقيس لنزار قبّاني.** (رسالة ماجستير بإشراف د. بلقاسم ليبارير). جامعة الحاج لخضر- باتنة، الجزائر.
- الطرابلسيّ، محمّد الهادي (١٩٩٢). **تحاليل أسلوبيّة.** تونس: دار الجنوب للنشر.
- فضل، صلاح (١٩٩٥). **أساليب الشعريّة المعاصرة** (ط١). بيروت: دار الآداب.
- النهمي، أحمد صالح محمّد (٢٠١٣). **الخصائص الأسلوبيّة في شعر الحماسة بين أبي تمّام والبحتري: شعر الحرب والفخر أنموذجًا.** (أطروحة دكتوراه بإشراف د. محمّد إبراهيم شادي). جامعة أمّ القرى، السعوديّة.
- راجع أيضًا قائمة مصادر المبحث ومراجعه، وبخاصّةٍ ما انتهى منها بعلامة *.

مصادر المبحث ومراجعه

- أبو العدوس، يوسف (١٩٩٩). **البلاغة والأسلوبيّة: مقدّمات عامّة** (ط ١). عمّان: الأهليّة للنشر والتوزيع.

- البكري، طارق (تشرين الثاني ٢٠٠٣). «الأسلوبيّة عند ميشال ريفاتير». دار ناشري للنشر الإلكترونيّ. تمّ الاسترجاع في (٢٨ آب ٢٠٢٠-٢٠:٧ ب.ظ.) من:

http://www.nashiri.net/critiques-and-reviews/critiques-and-analyses/587.html

- الحربي، فرحان بدري (٢٠٠٣). **الأسلوبيّة في النقد العربيّ الحديث: دراسة في تحليل الخطاب** (ط ١). بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.
- خليل، إبراهيم محمود (٢٠٠٣). **النقد الأدبيّ الحديث: من المحاكاة إلى التفكيك** (ط ١). عمّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.
- شريم، جوزيف ميشال (١٩٨٧). **دليل الدراسات الأسلوبيّة** (ط ٢). بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.
- فضل، صلاح (١٩٩٨). **علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته** (ط ١). القاهرة: دار الشروق.
- الكوّاز، محمّد كريم (١٤٢٦). **علم الأسلوب: مفاهيم وتطبيقات** (ط ١). الزاوية- ليبيا: منشورات جامعة السابع من أبريل.*
- المسدّي، عبد السلام (يناير ١٩٧٣). «محاولات في الأسلوبيّة الهيكليّة تأليف م. ريفاتار». **حوليّات الجامعة التونسيّة** (العدد ١٠)، ٢٧٣-٢٨٧.
- مكرسي، مونية (٢٠١٠). **التفكير اللغويّ عند ريفاتير.** (رسالة ماجستير بإشراف د. عبد السلام ضيف). جامعة الحاج لخضر- باتنة، الجزائر.
- مولينيه، جورج (١٩٩٩). **الأسلوبيّة** (ط ١)، تر. بسّام بركة. بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.
- ناظم، حسن (٢٠٠٢). **البنى الأسلوبيّة: دراسة في أنشودة المطر للسيّاب** (ط ١). بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ.*

إعداد: د. أيمن القادري